

فصة قصيرة..

أغصانها، وتنشر ألحان أغاريدها الجميلة! وعند المغيب تعود إلى أعشاشها، وخصوصا طيور السنونو التي تتميز بسرعتها الخاطفة كالبرق، فقد كان يتأمل هذه المشاهد الجميلة، كما كان يقف في الضحى ليشاهد رعاة الأبقار وهم ينادون بعضهم بعضا فيحس بالطمأنينة والسعادة.

كان يوما من أيام العطلة، وقد أخذ يتناول كأس الشاي رشفة رشفة، ويتجول في أجنحة المتحف، يمعن النظر إلى تلك الهياكل التي على شكل رؤوس بلا أجساد، وأجساد بلا رؤوس، مختلفة الحجم، كبيرة وصغيرة، بعضها يمثل ملكا، أو فتاة جميلة، وبعضها يمثل ثورا، أو غزالا، وبعضها على شكل طيور!

«نعم هذا هو التاريخ! ماذا ترك لنا غير الأحجار؟ الملوك الذين صنعوا لأنفسهم هياكل كانوا عقلاء!، لأن غيرهم لم يتركوا أي أثر بعدهم، انظر! حتى صميم المؤرخ يخدم تلك الهياكل!!» مرت هذه الخواطر في أعماقه.. وتابع سيره نحو الفناء الداخلي، ووقف أمام الأواني والأطباق الفخارية، فشد انتباهه بطاقة

معلقة على زير كبير، كتب عليها «أثر أورارتي».

كان للأورارتو آثار مهمة في موطنهم، وكان صميم بك

صميم بك مؤرخ يعرفه كل المثقفين منذ ثلاثين سنة تقريبا يدرس التاريخ في شرق الأناضول. كان قد ختم شهرته بكتابة تاريخ الوطن الذي ولد فيه وترعرع، وأحبه كثيرا. أحيانا كان يكتب إلى الوزارة ما يجده في الكتب الدراسية من

أخطاء تاريخية كبيرة، وقد أثبت مصداقية ما يكتبه، وأعجب به تلامذته من هذه الناحية. صميم بك كان قد نقش في الأذهان صورة شخصية متميزة: بشفتيه المرتعشتين، ورجليه المتعاكستين، فاشتهر بين الناس بصميم الأعرج!

ذات مرة عين مديرا لمتحف بلده، فوجدها فرصة ليرتاح قليلا، وينصرف إلى القراءة، وليبقى مع التاريخ ووثائقه وآثاره وجهها لوجه. فقد سئم حفظ النصوص والحوادث التاريخية.

كان المتحف بمبنى تاريخا حيويا يمد بهشعور الطمأنينة، لأنه يجسد التاريخ أمام عينيه. وتخلص من المدرسة التي كانت تولد لديه شعورا بالضيق والضجر كلما وقع نظره على مبناها.

الآن هو سعيد في عمله الجديد، وكان هذه الأيام التي

يقضيها في المتحف إشرافه شمس الربيع: حيث تتفتح الأزهار، وتخضر الأرض، وتأخذ زخرفها، وتغرد الطيور على



راهر النمثال*

كنبها علي نار ونرجهها حشر صالح

اشترك في التنقيب عنها أثناء الحفريات، وبسببها تمت ترقيةه إلى إدارة المتحف.

وبينما كان صميم بك متجها نحو مكتبه ليتصل هاتفيا بأحد أصدقائه المؤرخين القدامى، وفي وسط الممر الرئيسي تماما إذا هو بضابط قد دخل من الباب الكبير! تلفت الضابط حوله، وسأل الحارس عن غرفة المدير.

فأشار الحارس إلى صميم بك.

-(الضابط وصميم بك وجها لوجه).

- تفضل يا بني! هل تريد أن تتجول داخل المتحف؟

= نعم، ولكن كنت أود أن ألتقي بك أيضا.

قال صميم بك: تفضل، ومشى نحو غرفته. ولكن الضابط مد إليه شيئا كرويا ملفوفا بورقة.

قال صميم بك متعجبا: ما هذا يا بني؟

= فأجاب الضابط: تمثال سيدي.

- قال صميم بك مداعبا: هل التمثال سيدي؟

= أجاب الضابط بنصف ابتسامة خجولة، مغيرا عبارته: أعني رأس تمثال سيدي المدير!

- هذه المرة قال صميم بك الذي كان يحب المداعبة: يعني هل أنا السيد المدير رأس تمثال؟

وكان قد أخذ اللقافة خلال كلامه، وفتحها، فإذا هو برأس تمثال صغير بدون جسم. فاستطرد قائلا: أهذا كل ما في اللقافة؟ أين وجدته؟

= في القلعة، القلعة التي على جبل الغربان، حين كنا نحفر الأرض لتنصب الخيام وجدته هناك، الرأس فقط.

هكذا أوجز الضابط كلامه، وزاد اهتمام صميم بك، ومشى نحو صالة عرض التماثيل وهو يقلب الرأس تقليبا، ووقف أمام الجناح الخاص بالأورارتو.

كان الضابط ينظر بهدوء، بينما يبحث صميم بك عن وجه التشابه بين الرأس والتماثيل الأخرى، وهو يحدث نفسه بصمت «يمكن أن يكون رأس أورارتو، ماذا كان يخالف نفس الإنسان القديم حين نحت هذا الرأس، وما شابهه؟ ربما نحتوا أولا ثم عبدوا ما صنعوه!!»

كانت شفتاه ترتجفان بحركاتهما المعروفة حين يخالجه شعور ما.

■ حسنا أيها الضابط: ماذا كنت تنوي عمله؟

● سيدي! كنت أفكر أن أبيعته إلى المتحف، إذا كان ينفع طبعا.

■ من حيث النفع، ينفع. ولكن كم تطلب ثمنه؟

● أنتم قدروا ثمنه.

كان صميم بك ينبغي أن يكون حذرا، حيث فكر بنصف ثمنه! يمكن أن يصل إلى ثلاثة آلاف ليرة تركية، ولكن بعد موافقة الوزارة. خفف الرجل الشاب رأسه، كان موافقا، وسيقبض الثمن بعد موافقة الوزارة: ومضى مودعا.

وضع صميم بك التمثال الجديد في الجناح الخاص به، وجلس مكانه وهو في غمرة من الفرح على العمل الذي أنجزه، واتصل مباشرة بالهاتف مع صديقه وبشره بالحصول على التمثال، وأخذ يكتب الكتاب الذي سيرسله إلى الوزارة بشأن

الموضوع. وعندما انتهى من كتابته كان صديقه المؤرخ قد حضر، وبعد أن رحب به صميم بك، اتجها إلى الجناح الذي وضع فيه رأس التمثال، تناولا الشاي، وهما يتأملان الوثائق التاريخية.

قال صميم بك: «التاريخ يعني وثيقة. واستطرد: أصدق الوثائق التاريخية هي الآثار الرخامية والحجرية. هذه الهياكل مثلا كأنها أبطال صنعوا التاريخ، يتكلمون، ويقولون: ها أنا ذا، عملت كذا وكذا...! مثلا هذا الرأس الصغير بدون جسد، والذي حصلنا عليه اليوم، قد وجده ضابط حين كان يحفر التحصينات - هذا الرأس يعود تاريخه إلى عهد الأورارتو ما قبل ثلاثة آلاف سنة على الأقل».

أما صديقه المؤرخ فقد أخذ يقلب رأس التمثال يمنا ويسرة، وقال: نعم، جمجمة أورارتية، وهذه مزايا فنههم واضحة، مثلا: تكوين الحواجب، طول الفك السفلي. استطالة الأنف، كلها توضح مزايا فن العهد الأورارتي، أسند ظهره إلى الخلف، وقال بثقة أكثر:

إن الهياكل هي التي أوصلت إلينا أصدق الأخبار من العصور المظلمة للتاريخ، هي بلا لسان، وبغير روح. لكنها وثائق متكلمة!!

أخذت شفتا صميم بك ترتجفان، وبمجرد انتهاء صديقه من الحديث ألقى بدعابته: ألا يمكن أن تكذب التماثيل أحيانا؟ كان صديقه على وشك أن يقول لا، لكن صميم بك قاطعه قائلا: أنا أنظر إلى التاريخ - وخاصة ما قبل إيجاد الكتابة - بأنه مظلم، وبتفكير بسيط ندرك أنه لا يمكن تأكيد صدق وثيقة بقياسها بوثيقة مماثلة! ولكن ذوقي كمؤرخ يمكنه أن يدقق في كل هذا، وقد يعجبني إبداء حكم قاطع بأن حادثة ما حدثت في تاريخ كذا!

قطع دخول الفراش هذه المناقشة، وأخذ صميم بك يكتب خطابا إلى قسم أبحاث التاريخ القومي لتدقيق رأس التمثال من حيث التاريخ الذي يعود إليه، وقيمته الأثرية، وتقدير ثمنه الشرائي ليوضع في المتحف. وكان صميم بك يدلي بآرائه أيضا خلال خطابه والتي تتمثل بعبارة «يمكن أن...» لكن صديقه عارضه، وأصر على أن تاريخه يعود إلى العهد الأورارتي قبل ثلاثة آلاف سنة، وأوصاه أن يكتب بهذا! ورغم ذلك فإن صميم أرسل الخطاب كما أراد هو، لأنه لم يكن يعتقد بالوثائق التاريخية على أنها وحي، كما كان يراها صديقه، فقد كان منطقيا أكثر.

وهكذا أرسل رأس التمثال، ودقق في المؤسسات العلمية المختلفة في العاصمة على يد الأساتذة والخبراء، ووضع في

كيس. وكتبت حوله تقارير كثيرة، وأكدت كلها على أنه من العصر الأورارتي، وأن قيمته الشرائية تقدر بما يتراوح بين ثلاثة وخمسة آلاف ليرة تركية. وتشير إلى استحقاق صاحبه هذا الثمن!

بعد رحلة طويلة عاد رأس التمثال إلى موطنه الأصلي مرة أخرى، واستقر بيد صميم بك في جناحه الخاص بالمتحف، وألصقت عليه بطاقة التصنيف، وإلى عهد أي ملك يعود، وسجل اسمه في الدفاتر، وذات يوم مر الضابط بصميم بك وقبض الثمن، وقدم له الشكر.

جاء زوار كثيرون، مروا أمام التمثال، وأخذ كل منهم يبدى رأيه.

بعض الشباب شبهوه بهتلر! ولما قرؤوا ما كتب على بطاقة التصنيف أحسوا بأنهم مرغمون على الاعتراف بخطئهم. ودهش بعضهم لهذا الشبه بين تمثال يعود إلى القرون البدائية ورجل في القرن العشرين! وبعضهم الآخر أكد بأن رجلا في القرن العشرين يمكن أن يشبه بتمثال في القرون البدائية؛ لأنه لا فرق بين التماثيل في الماضي، والتماثيل في الحاضر، فالتمثال تمثال بغض النظر عن اسم صاحبه وسبب نحته. وقال بعضهم إن نحت التمثال أساسا عمل بدائي ورجعي!

ذات يوم، في نهاية شهر أيار (مايو)، حيث يبدأ موسم الرحلات في نهاية السنة الدراسية، كان طلاب المدرسة الصناعية في المنطقة يزورون المتاحف والآثار على شكل مجموعات تحت إشراف مدرس الرسم ومدرس التاريخ. كانوا يطلعون على فنون بلدهم، ويتعرفون على آثاره بزيارة المتحف، وقد غصت بهم أجنحة المتحف ومعارضه.

كان صميم بك ينتعش كثيرا في مثل هذه اللحظات، ويتفعل وهو يعرف التلاميذ بهذه التماثيل، كان قد انتهى من الأقسام المختلفة حتى وصل إلى الجناح الأورارتي، شرح لهم عن تواريخ أخبية الماء، والأواني الفخارية، واللحود المرمية، وجاء دور التعريف برأس التمثال. فقال إن رأس التمثال هذا وجده ضابط، وليس له جسم مع الأسف، وقد وجد في منطقة تسمى سوق الغربان أثناء الحفر لإقامة تحصينات فاشتريناه، ووضعناه في متحفنا.

ولكن حدث شيء! فقد تقدم طالب نحو الأمام وهو يشق صفوف زملائه، وجلس أمام الرأس، وأخذ يمعن النظر فيه، ثم التفت إلى أحد زملائه قائلا انظر، انظر.. هذا رأس تمثالي الذي نحته!

كان صميم بك قد أعار أذنه لما يقول، فقال له أي رأس يا ولدي؟ قال الطالب الشاب هو ذا الرأس الذي تتكلم عنه، والدي وجدته مؤخرًا، هذا الرأس الصغير الذي بدون جسم! وسكت الجميع.

قال صميم بك متعجبًا ما هذا الكلام يا بني؟ كيف يكون هذا للـ؟

قال الطالب باطمئنان ودون أي انفعال يا سيدي كلفنا أستاذ

الرسم بواجب، وقمت بنحت تمثال، وأريته أستاذي، وحصلت على عشر درجات عليه، وأستاذنا هنا؛ ولكن التمثال سقط في البيت وانكسر، ثم أخذ الأطفال رأسه وضيعوه، وأما الجسد فما زال في البيت، وإذا أردتم أحضرته لتطابقوه وتروا!!

قال صميم بك: يا بني! ربما تكون مخطئا؛ لأن هذا ليس شيئًا جديدًا، فقد أرسل إلى أنقرة وعاد، وقدر الخبراء عمره بثلاثة آلاف سنة، هل تعرف أن مثل هذا يعرف من خلال مكوثه في التراب؟

قهقهه التلاميذ عاليا، وقال مدرس التاريخ لصميم بك مكررا: - أتقول إنه ذهب إلى أنقرة وعاد؟

ضحك التلاميذ ثانية، وانضم مدرس الرسم إلى الحديث، وقال.

- إذا ذهب إلى أنقرة وعاد فقد انتهى!! وقهقهه التلاميذ مرة أخرى.

كان صميم بك في حيرة، ولكنه لم يفوت مداعبته، وقال لهم: يا أولادي! هل تضحكون على التاريخ، أم تضحكون علي؟ التاريخ لا يكتذب، ولكن الطالب كرر إصراره: لأن منزله قريب، وبإمكانه إثبات ذلك.

وعلق صميم بك بتواضعه المعروف قائلا لنر يا بني! سنأخذ مقياس طول التمثال..

.. ذهب الشاب إلى البيت سريعا وعاد قبل انتهاء زيارة باقي أجنحة المتحف، ومد يده، وناول قطعة رخام أبيض لصميم بك..

مشى الجميع نحو التمثال باهتمام شديد، وتناولوا الرأس ووضعوه على جسم التمثال. كان في مكانه بالضبط! ولم تكن هناك ذرة من الشك حول كونه رأس التمثال!!

كانت شفتا صميم بك ترتجفان، ولم يكن منزعجا على ذلك، كان يفكر بصياغة جملة لطيفة، وبعد أن قلب الفكرة خاطب التلميذ الشاب وهو يمد عبارته: «أنت على حق يا بني! التاريخ الذي عبد قطع الأحجار باعتبارها وثائق تاريخية؛ خدعنا أيضا! وستبقى هذه الحادثة لي ذكرى حلوة!

هنا كان عليه أن يتصل بصديقه المؤرخ، ويدعوه للحضور إلى المتحف، ورجا الزوار أن ينتظروا مجيء صديقه.

وصل هو الآخر، وتبادلوا الحديث حول الموضوع، وضحكوا كثيرا وهم في حيرة يتفكرون.

التمثال لم يكن قديما، لأنه لم يمر عليه في التراب سوى شهر واحد، ولكن كان يشبه تمثالا بدائيا وقديما جدا!

وبدا صميم بك يكتب تقريرًا حول ما حدث، وأخذ توقيع أستاذ الرسم الذي أشرف على نحت التمثال من قبل الطالب. وهكذا وقع المؤرخون الثلاثة على التقرير الذي يؤيد كذب كثير من الوثائق التاريخية!!

(*) قصة قصيرة من المجموعة القصصية «بحر الدم» باللغة التركية للأستاذ علي ناز، رئيس المكتب الإقليمي للرابطة في تركيا، ورئيس تحرير مجلة الأدب الإسلامي التركية.